٣ ـ النهضة التركية الأخيرة

للدكتور عبد الوهاب عزام

شذرات من كلام محمد اقبال

أقفى على ما كتبته فى المقال السابق عن موقف المسلمين من تقليد أوربا بشذرات من الفيلسوف الشاعر الهندى محمد اقبال تؤيد ما قلت . وهى شذرات من كتابه جاويدنامه ، وهو رحلة خيالية فى الأفلاك والجنة تضمنت آراء اقبال فى الاسلام والمسلمين ، وسأتكلم عنها فى مقالات أخرى ، وإن تكن هذه الشذرات طويلة فالحق لا يضيره الطول . قال على لسان سعيد باشا حليم حينما لقيه فى فلك عطارد مخاطباً المسلم :

« قم فصوّر بنفسك عالماً آخر ، وامزج العشق بالذكاء الباهر . إن شعلة الأفرنج أصابها الماء فهى خامدة ، فالعيون ناظرة والقلوب هامدة ؛ أصابت سيوفهم منهم المقاتل ، فسقطوا كصيدهم فى المجاهل . فلا تطلب الحرقة والنشوة من كروبهم ، ولا ترجّ عصراً جديداً فى أفلاكهم . فى نارك أنت حرقة الحياة ونورها ، وعليك أنت بثها ونشورها

قال مصطفى[1] وهو يتغنى بالتجديد : « لا بد أن نمحو كل قديم عتيد . » إن الكعبة لا تجدد فيها الحياة ، إذا جاءها من أوربا اللات ومناة . وا أسفا ليس فى رباب التركى نغمة جديدة ، جديده قديم أوربا الغالبة . لم يكن غير هذا النفَس فى صدره ، ولم يكن سوى هذا العالم فى ضميره . فلا جرم سكن إلى العالم الموجود ، وذاب كالشمع فى حرقة العالم المشهود . وكم فى طباع الكائنات من طريف وجديد ، ليس فى تقويم الحياة هذا التقليد ، إن القلب الحىّ يخلق العصور ، وينفر من التقليد أى نفور

إن يكن لك قلب المسلم الولهان ، فانظر فى ضميرك والقرآن ، كم عالم جديد فى آياته ، وكم عصر مطوى فى آناته[2] . وحسب العصر الحاضر واحد من عوالمه ، إن نفذ قلبك إلى بواطنه ، إن المؤمن من آيات الله الوهاب ، يلبس العوالم لبس الثياب . كلما قدم عليه عالم منحه القرآن عالماً آخر . . . الخ .

وهذا حديث من الكتاب نفسه بين نادر شاه ملك إيران وزنده رود (محمد اقبال) حينما التقيا فى الجنة :

نادر :

مرحباً بالشاعر المشرقىّ ، الذى يجيد به اللسان الفارسىّ ، إنى محرَم للأسرار فأفش أسرارك ، ماذا عندك عن ايران الوطن المبارك ؟

زنده رود :

فتح عينه على نفسه حيناً ، ثم وقع فى الشرك سريعاً . هو صريع دلال أوربا الفاتنة هام بها فاتبعها ، وفتن بزينتها فقلدها ، همّه اليوم الملك والنسب ، وذكر سابور وتحقير العرب ، أوقاته من الواردات خالية ، يطلب الحياة من القبور البالية . تحدث بالوطن وذهل عن نفسه ، وترك حيدراً[1] وهام برستمه ! الخ

ويقول على لسان أبدالى[3] ملك الأفغان فى القرن الثانى عشر حينما لقيه فى الجنة

أبدالى :

ذهل الشرق عن نفسه بما قلد الغرب واتبعه ، ولابد للشرق أن ينقد الغرب فيفهمه ، ليست قوة الغرب من العود والرباب ، ولا من رقص الفتيات بغير حجاب ، ولا من سحر وردّيات الخدود ، ولا من الساق العارية والشعر المجدود . وليست هيبة الغرب من نبذ الدين ، ولا بهاؤه من حروف اللاتين . ما قوة الأفرنج إلا العلوم والفنون ، وما ضوء مصباحهم إلا من هذه النار

ما الحكمة صورة من الزى واللباس ، وما تمنع العلم والفضل عمامة على الراس ؟ إن للعلم والفن أيها الشاب الناظر ، سراً وراء هذه الظواهر ؛ وإنما يغنى فى هذه السبيل العين النظارة ، لا هذه العمارة[3] أو تلك العمارة ؛ حسبك الفكر النفاذ ، وناهيك بالطبع الدرّاك . إن مُلك المعنى لم يحجّره أحد ، ولا يناله إلا الجهاد والجلد ، لقد غفل التركىّ عن نفسه ، وسكر من الأفرنج رأسه ،

وقع تحريف فى المقال السابق فى كلمة « طوبنا مسافة القرون » فكتبت : « طوبنا مسألة القرون » كذلك حرفت « أين ثم أين » إلى « آمين ثم آمين »

(١) يعنى الغازى مصطفى كمال باشا (٢) جمع آن

(١) على بن أبى طالب (٢) أحمد خان أبدالى ملك الأفغان فى القرن الثانى عشر الهجرى (٣) العمارة غطاء الرأس

فشرب من يدهم السم حلو المذاق ، وترك عامداً ترياق العراق ، ولست أدعو له إلا بالهداية والسداد . إن عبد الأفرنج قد أولع بالظهور ، فأخذ عنهم الغناء والفجور ، يضني روحه في اللهو والفتون ، ويستصعب الجد فيركن إلى المجون . يؤثر السهل ايثاراً لراحته ، ويرى في السهل كفاء لفطرته . وإنما طلب السهل في هذه المحن ايذان بأن الروح قد فارق البدن »

ويقول في خاتمة كتابه خطاباً للجيل الجديد :

« آسيا موطن الشمس ومشرقها ترى غيرها وتحتجب عن نفسها ، قلبها محروم من الواردات الجديدة ، فهي اليوم لا تزن شعيرة ؛ وقتها في معترك هذه الدار جامد ساكن لا يلذ التسيار . هي صيد الشيوخ وقنيص الملوك ، وغزال فكرها ظالع منهوك . العقل فيها والدين والعلم والشرف والعار من ربقة السادة الافرنج في إسار . هجمت على عالم أفكارها ، ومزقت حجاب أسرارها ، وجعلت قلبي في صدري دماً حتى صبغت عالمها لوناً آخر . . . . شباب عطاش كؤوسهم فارغة ، ووجوههم نضرة ، ورؤوسهم مضيئة ، وأرواحهم مظلمة ، ضعاف البصر قد حرموا اليقين والأمل ، لم تدرك أعينهم شيئاً في هذا العالم ، يكفرون بأنفسهم ويؤمنون بغيرهم ؛ إن منكر الحق عند الشيوخ كافر ، ومنكر نفسه عندي أكفر »

* * *

ثم أعود الى الكلام فيما فعله الكماليون فيما يسمى « النهضة التركية الأخيرة » ، وأقدم قبل الكلام ترجمة البلاغ الذي أذيع على الناس قبل فتح المجلس الكبير بأنقرة ليتبين القارئ أين ابتدأت هذه النهضة وأين انتهت :

نشرت الهيئة التمثيلية التي مهدت لاجتماع مجلس الأمة الكبير بأنقرة هذا البيان قبل فتح المجلس :

١ — بمنه الكريم سيفتتح مجلس الأمة الكبير في أنقرة يوم الجمعة الثالث والعشرين من نيسان بعد صلاة الجمعة

٢ — اختير يوم الجمعة لفتح مجلس الأمة الكبير الذي سيؤدي الوظائف الحيوية الخطيرة مثل انقاذ مقام السلطنة ، والخلافة ، واستقلال الوطن . ويستفاد من بركة هذا اليوم فتؤدي صلاة الجمعة في جامع الحاج بايرام ويحضرها المبعوثون كلهم ، للتيمن بأنوار القرآن والصلاة . وبعد الصلاة يسار باللحية المباركة واللواء الشريف إلى الدائرة المخصوصة . وقبل الدخول إلى الدائرة يتلى دعاء وتذبح الذبائح . وفي هذه المراسم تنظم الفرق العسكرية ، من الجامع الى الدائرة المخصوصة

٣ — لأجل تأكيد قدسية اليوم المذكور يبدأ اليوم بتلاوة الختمة الشريفة والبخاري في مركز الولاية بترتيب الوالي ، وتؤخر الأجزاء الأخيرة من الختمة الشريفة لتتلى أمام الدائرة يوم الجمعة بعد الصلاة

٤ — لأجل تأكيد قدسية اليوم المذكور يشرع منذ اليوم (في كل الجهات) في قراءة الختمات الشريفة والبخاري ، وتقرأ الصلوات الشريفة على المنارات يوم الجمعة قبل الأذان ؛ وحينما يذكر أثناء الخطبة الاسم الهمايوني العظيم اسم حضرة صاحب الخلافة سلطاننا يدعى لصاحب الشوكة ولمالكة الشاهانية ولرعاياه بالخلاص والسعادة . وبعد أداء الصلاة يكمل الختم وتلقى المواعظ في تبيين خطر وقداسة المساعي الملية التي يراد بها خلاص مقام الخلافة المعلى والسلطنة وأقسام الوطن كلها ، وفيما يجب على كل فرد من المؤازرة في تأدية الوظائف الملية التي يقوم بها المجلس الكبير المؤلف من نواب الأمة . ثم يدعى بالخلاص والسلامة والاستقلال لخليفتنا وسلطاننا ، ودينا ودولتنا ، ووطننا وملتنا ، وبعد إيفاء هذه المراسم الدينية ، والخروج من الجامع ، يجتمع الناس في مركز الحكومة في كل البلاد العثمانية ، للتهنئة بفتح المجلس . ويقرأ المولد الشريف في كل جهة قبل صلاة الجمعة بصورة مناسبة

٥ — تتخذ كل الوسائل لاذاعة هذا البيان ، ويبلغ سريعاً إلى أبعد القرى ، وأصغر الفرق العسكرية ، وكل مؤسسات الدولة ، ويعلق في لوحات مخصوصة ، ويطبع ويوزع مجاناً حيثما أمكن ذلك

٦ — نضرع الى جناب الحق أن يهبنا التوفيق الكامل

باسم الهيئة التمثيلية

مصطفى كمال

ذلك ما افتتح به الكماليون عملهم ؛ فلما أتيح لهم النصر شرع القادة منهم يتنكرون للاسلام . وكان أشدهم إفراطاً في ذلك الغازي مصطفى كمال باشا الذي كان المسلمون جميعهم يعدّونه بطل أبطالهم غير مدافع . ولست أدري أيعود الكماليون

فيتوسلون بالدين إذا وقعوا فى محنة أخرى . ولست أودّ لهم المحن بل أدعو لهم بالعافية والهدى . حدثني من أثق به عن الشيخ عبد العزيز جاويش رحمه الله أن الغازى قال له مشيراً إلى القرآن الكريم : « لن تفلحوا ما دام هذا الكتاب البالى إمامكم » وحدثنى آخر من كبار الرجال أن الغازى رمى بالمصحف ساخراً ؛ وكان يأمر فتترجم له بعض آياته ليتخذها هزواً . ألم يكن للنهضة التركية بدّ من هذا ؟ لقد سبقنا الأوربيون فى كل سبيل وما سمعنا عن ملك من ملوكهم أو زعيم من زعمائهم أنه فعل هذا بالتوراة والانجيل . ولو فعله بعضهم لكان فعلة شنعاء لا يقتدى بها العقلاء . وقد قرأت فى إحدى الجرائد الانكليزية منذ سنين أن ملك الانكليز يواظب على قراءة فصول من التوراة منذ أربعين سنة لأن أمه أوصته بهذا

وقد كتب الكماليون فى دستورهم أول الأمر أن دين الدولة الاسلام ، ثم عادوا فمحوا ذلك منادين بأن الدولة لا دين لها . ثم عمدوا إلى القوانين المدنية ، وهى مستنبطة من الشريعة الاسلامية فنبذوها واستبدلوا بها قانون سويسرا . وليسوا أول من يلام على ذلك ، فقد سبقهم المصريون فسنوا للمسلمين هذه السنة السيئة ، ولكن الكماليين كانوا بدعاً من الأمم فى اختيار قانونهم الجديد . فما كان هذا القانون وليد عاداتهم ، ولا نتيجة حاجاتهم ، ولا منتهى ما رآه أولو الأمر منهم ، بل أتوا بالقانون السويسرى مجموعاً مطبوعاً مجلداً ، وعرض على المجلس هذا المجلد مطبقاً ، وأخذت الآراء فأجمع عليه الأعضاء ، فانتقل قانون سويسرا إلى الأناطول فى ساعة ، وصار الأناطول سويسرا ، وصار أهله سويسريين ، وأنجاهم الله من القوانين الاسلامية البالية ، إذ أنزل عليهم قانوناً جديداً مطبوعاً مجلداً ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء !

* * *

ومما ابتدعه الكماليون التأذين باللغة التركية . وقد ترجموا القرآن من قبل إلى لغتهم فعذرناهم وقلنا لا بد للمسلم أن يفهم قرآنه ، والتركى لا يستطيع أن يفهم القرآن بالعربية فلا مناص من ترجمته إلى لغته ؛ والأمر فى الأذان غير هذا ، فهو تسع كلمات معدودات صارت شعاراً للمسلمين فى أقطار الأرض كلها يفهمونها على اختلاف لغاتهم ؛ ليس فى الأرض مسلم لا يعرف معنى الله أكبر ومحمد رسول الله ، والصلاة والفلاح ، وإن يكن فى الأرض مسلم لا يفهمها وجب عليه أن يفهمها احتفاظاً بهذا الشعار ، واستمساكا بهذه الكلمات الجامعة بين المسلمين . فما بال الكماليين أصرّوا على التأذين بالتركية ؟ ذلك بأنهم لا يبالون بالرابطة الاسلامية ، وما أحسبهم إن استمرت لهم هذه السيرة إلا سيلغون الأذان كله فيستريح السادة المترفون من هذه الضوضاء . ذهبت مرة إلى جامعة اكسفورد فتمشيت فى إحدى كلياتها مع الطلبة . فلما جلسنا على الموائد أقبل جماعة من الأساتذة إلى مائدة تسمى المائدة العالية ، فوقف الطلبة ، وتلا أحد الأساتذة دعاء باللاتينية . ولما انتهى الطعام وقف الطلبة خاشعين فاستمعوا إلى دعاء آخر باللاتينية أيضاً . وهناك شواهد كثيرة على احتفاظ الأمم فى بعض أمورها بكلمات من لغات غير لغاتها احتفاظاً بذكرى تاريخية أو ابقاء على سنة دينية . وأذكر هنا أن فى اكسفورد تسع عشرة كلية مع كل واحدة منها كنيسة ، والطلبة ملزمون بالتناوب على الصلاة فى أوقات معينة ، فهل منع هذا الامبراطورية البريطانية من أن تسود العالم ؟ أو كان هذا بعض الأسباب التى مكنت لها فى الأرض ؟

ولا ننسى هنا أن الجامعة المصرية حينما شيد بناؤها على طراز أوربىّ لا مصرىّ ولا عربى لم يُتم بُناتها التقليد ببناء مسجد ، ييسر للطالب المصلى تأدية الصلاة ، فكأنه أكره على ترك الصلاة اكراهاً . وقد تكلمت فى هذا فقيل لى إن فى تخطيط الجامعة مسجداً . ولست أدرى متى يشيد هذا المسجد المخطّط ؟ لماذا نؤمن ببعض سنن الأوربيين ونكفر ببعض ؟ ولماذا يا قوم تقدمهم فى المراقص ولا نقدمهم فى بناء المعابد فى الجامعات ؟ وقد كان لنا مصليات فى مدارسنا ، وكان لها أئمة يصلون بالطلبة ، ولكنا شمرنا بتوغلنا فى المدنية وتقدمنا فى العلوم والفنون فخجلنا من الابقاء على هذه السنن القديمة فأهملناها فدرست ونسيت !

* * *

ومما فعله الكماليون آخراً تحويل جامع آيا صوفيا كنيسة يمحو مافيه من آيات قرآنية وأحاديث ، والكشف عما ستره المسلمون من صور القديسين والملائكة والصلبان ونحوها من نقوش المسيحية ؛ وقد احتج لهم من يدافع عنهم بالحق وبالباطل بأن بناء المسجد وَهى ، ولم يبق صالحاً لاقامة الصلوات فجعلوه متحفاً وكشفوا عن هذه الصور الأثرية ، فهل معنى هذا أن

الكماليين أشفقوا على المصلين أن يخرّ عليهم المسجد فأرادوا أن يقدموهم بروّاد المتاحف لا يبالون أن يسقط عليهم المتحف أولا يسقط ؟ هل بلغ الولع بالآثار القديمة عندهم أن يمحوا الآيات القرآنية ليكشفوا عن الرهبان والصلبان ؟ على أن هذه الآيات قد كتبت بخط جميل يجعلها من الفنون الجميلة ، ومضت عليها عصور تجعلها من الآثار القديمة

لست أرى فيما صنعه الكماليون بآيا صوفيا إلا إنقاذاً للمنهاج الذي وضعوه . فهذا جامع كان كنيسة معظمة عند النصارى ، وقد فتح المسلمون القسطنطينية فجاءوا من آيات الفتح والظفر تحويل الكنيسة إلى جامع فطمسوا نقوش النصرانية فيها ، وبنوا لها منارتين ، ونصبوا أمامها لوحاً كتبوا فيه حديثاً مروياً عندهم : « لتفتحن القسطنطينية ! ولنعم الجيش جيشها ، ولنعم الأمير أميرها ! » ولا يزال الترك كلما مر بهذا الجامع ذكر الفتح والفاتح ، وغلبة الاسلام في هذه المدينة ونحو هذا مما لا يلائم « النهضة التركية الأخيرة » ولا يسايرالمدنية الحديثة ، ثم لا يزال هذا الجامع حسرة في نفوس النصارى ، ما نسوه قط ، وقد أعربوا عن أملهم في تحويله إلى كنيسة يوم احتلّ الحلفاء الآستانة في الحرب الكبرى فتجمع الروم حول آيا صوفيا ليستولوا عليه فيعود سيرته الأولى . فكان لزاماً أن يمحو الكماليون هذه الآية من نفوس الترك وغيرهم من المسلمين ، لينسوا الماضي وينظروا إلى الحاضر . وليتقربوا إلى أوربا النصرانية التي التزموا محاكاتها في كل شيء . وما بالكم أيها المسلمون تكرهون هذا التسامح في الدين وأنتم تزعمون أن دينكم دين التسامح ؟ ستقولون إن أوربا النصرانية لا تتسامح معنا فنجزيها تسامحاً بتسامح ، ولا يزال كثير من مساجدنا في الأندلس والبلقان كنائس في أيدي النصرانية . وفاتكم أيها المسلمون أننا أولى بالتسامح منهم فلماذا لا نبدؤهم به ! ! !

وقد بلغني أخيراً أن الحكومة التركية هدمت المسجد الجميل مسجد المدرسة البحرية في هيبه لي أطه ، هذا المسجد الذي كان يشرف على بحر مرمرة يوحي إلى المسلم أن دينه ينبغي أن يعز في البر والبحر ، فان صدق هذا الخبر ، ولست على يقين منه ، فهو حلقة من هذه السلسلة

(له بقيـــة) عبد الوهاب عزام

الديمقراطية والانتخاب

في التربية

للأستاذ فخري أبو السعود

مبدأ التعليم العام حديث العهد وليد الديمقراطية في نظم الحكم الحديثة ، إذ اقتضت الديمقراطية المساواة بين جميع أفراد الأمة في الفرصة التي تتاح لهم لتقويم طباعهم واستثمار مواهبهم ؛ ففي نصف القرن الأخير جُعلت مرحلة التعليم الأولى في دول الغرب الراقية عامة إجبارية مجانية ، لينال كل فرد حظاً من التعليم ، وعاونت الحكومات ذوي المواهب من أبناء الطبقة الفقيرة على المضي إلى غايات التعليم دون أن يكون فقرهم عائقاً لهم عن ذلك ، وبذا انتشر النور وأطلقت المواهب التي كانت من قبل معقولة

على أن التعليم العام لم يَخْلُ انتشاره من مساوئ : من ذلك أن معظم أبناء الطبقة السفلى يغادرون المدرسة توا عقب إنهاء مرحلة الدراسة الأولى ويعودون إلى مزاولة مهن آبائهم وينسون ما تعلموه في المدارس إلا النزر اليسير الذي لا يساعدهم إلا على قراءة غث الكتب وفارغ القصص ؛ ومن ثم انتشر الأدب الرخيص وطغى على الأدب العالي ، وتدلت الصحف ، وكثر الكتاب المرتزقون الذين لا يتوخون سوى ارضاء تلك العقلية المنحطة ، وقد آذى هذا الأدبُ المنحط الثقافةَ الرفيعة : إذ اجتذب غير قليلين من المتعلمين تعلماً راقياً ، لأن من طبيعة الانسان أن يؤثر الهين من الأبحاث على الصعب منها ، إلا أن يكون له وازع من نفسه شديد يَقْسرُهُ على التسامي عن الفضول ؛ وما من وسيلة من وسائل التثقيف الحديثة كالراديو والسينما والمحاضرات إلا أُسِيءَ استعمالها كما أُسِيءَ استعمالُ الكتابة إرضاءً لفضول أشباه المتعلمين ، وكانت النتيجة أن التعليم العام حين رفع مستوى الطبقة السفلى درجة هبط بعقلية الطبقة العليا مثلها

على أننا إذا فرضنا أن التعليم العام كان خيراً كله في بلاد الغرب التي سبقتنا اليه فهل هو كذلك في مصر ؟ لقد أخذنا